

البيت الرواني

عبد الملك بن مروان

الفصل الخامس

٦٥-٨٦ هـ / ٦٨٥-٧٠٥ م

obeykandl.com

هو أبو الوليد^(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي، الخليفة الأموي الفقيه، والمؤسس الثاني للدولة الأموية، والمؤسس الحقيقي للنظام الإداري والسياسي للإدارات الإسلامية في عهد الدولة الأموية.

ولد في المدينة وتمقه في الدين واستلم الحكم بعد أبيه مروان بن الحكم سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م، واستقام على الملك واحداً وعشرين عاماً، وعجت بأخبار خلافته وأعماله كتب التاريخ العربي الإسلامي، ما كتب منها في العصور السانفة وما دون حديثاً. وعلى الرغم من اختلاف بعضها في تقويم تصرفاته فإنها كلها أفاضت بعلم عبد الملك وثقافته وفقهه وأدبه وشعره، حتى إنه كان يعد رابع أربعة فقهاء مشهورين في المدينة هم: سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وقال عنه الشعبي: «ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك فإنني ما ذاكرته حديثاً ولا شعراً إلا زادني فيه». كما أن كتب التاريخ أجمعت على حزمه وصرامته في تطبيق ما يؤمن به ومعرفة لطبائع البشر، فقد روى عنه المسعودي، أن بعض جلسائه طلب الخلوته إليه يوماً، فأجابه إلى طلبه بشرط ثلاث خصال: لا تطر نفسي عندك، أي لا تمدحها؛ فأنا أعلم بها منك، ولا تفتب عندي أحداً فلت أسمع منك، ولا تكذبني فلا رأي لمكذب، فاستأذن المجلس منه وانصرف.

ومما لاشك فيه أن ثقافته الواسعة وتفهمه لأحكام الدين وأعماق قيمه قد ساعدته على توسيع ساحة رؤياه، وإيضاح معالم الطريق الذي عليه أن يسلكه في استكمال بناء الدولة الإسلامية، كما أنه استطاع بثاقب فكره وبعد نظره أن يرسم لنفسه أبعاداً رئيسة تركز عليها الدولة الإسلامية ولا تكون متماسكة إلا بها، أولها: بُعد سياسي حربي دعامة الجيش الذي كان عليه أن يتحرك بالكم العددي والاستعدادات الملائمة بحسب ما تمليه سياسة الدولة للحفاظ على كيان الأمة ووحدتها، فقد وصل عبد الملك بن مروان إلى الخلافة، وقد عادت العصبية القبلية تمزق وحدة الأمة العربية، والمطامع الشخصية التي استغلت الخلافات المذهبية والعواطف الشعبية، تُكثل المسلمين فئات وأحزاباً متنافرة، تطالب كلها بالحكم والخلافة لأنها ترى أنها أحق من الأمويين بها، فهناك شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في العراق (التوابون، المختار بن أبي عبيد الثقفي وما نجم عنها من الكيسانية) وهناك المواليون لعبد الله بن الزبير رضي الله عنه الذي ثار بالحجاز ويبيع بالخلافة ومد سلطانته إلى العراق والمشرق، وهناك الخوارج؛ إضافة إلى تمردات فردية ومحلية.

إلى جانب هذا الانقسام الداخلي الخطير، كان الروم البيزنطيون في شمالي بلاد الشام وفي شمالي إفريقيا يتسللون بدسائسهم إلى صفوف سكان البلاد ويثيرون النفوس الطامحة منهم، ويحرضونها على الثورة لتعود السيطرة لهم بعد أن تحررت من عبوديتهم وسلطانهم مستغلين الأوضاع الداخلية.

عبد الملك بن مروان ٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م

حركة التوابين

كانت الكوفة بعد موقعة كربلاء تتحسّن أكثر من غيرها قتل الذنوب ومرارة الندم، باعتبارها طرفاً مباشراً ومسؤولاً في قضية الشهيد الحسين بن علي (رضي الله عنهما). فهي التي ألحّت عليه بالخروج إلى أرض العراق، ثمّ تقاعست في أخرج الظروف عن الالتزام بما وعدت به والوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسها. وإذا كانت الأحداث التي تلاحقت بصورة مفاجئة يُعيد تحركه (رضي الله عنه) من الحجاز قد حالت دون القيام بواجبها وتنفيذ مخطّطها المرسوم، فإنّ ذلك لم يكن يُخفّف عنها عمق المأساة؛ لأنها افتقدت بمصرعه (رضي الله عنه). الشخصية الأكثر جدارة التي وضعت فيها الشيعة كلّ آمالها وطموحها للوصول إلى الحكم^(١).

وحينما تولى عبد الملك بن مروان الحكم بعث إلى عبيد الله بن زياد يقرّره على ما ولاء عليه أبوه مروان في العراق، وتقدم ابن زياد نحو العراق وهدفه إجماع ولاية ابن الزبير، ولكنه اضطر إلى أن يغير خطته، فقد ظهر في الميدان أعداء جدد لم يكونوا في حسان ابن زياد وهم **(التوابين)**. حيث أخذ الشيعة يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي لدراسة الموقف، وأسلوب العمل الذي سببتمونه، وغلب على هذه الاجتماعات موضوع **التوبة والفران**، ثم شرعوا في تجييش الناس، وخرج التوابين من معسكرهم في **النخيلة** في شهر ربيع الأول ٦٥ هـ، وهو الموعد الذي حددوه لخروجهم، وكانت المحطة الأولى في مسيرتهم الانتقامية في **كربلاء** حيث بلغوا **قبر الحسين** فاسترحموا عليه ويكوا وتابوا عن خذلانهم له، وبعد يوم وليلة من البكاء كان الحماس قد أخذ منهم حق العمق، فقررروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد باعتباره الرجل الذي أصدر الأمر بقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما .

تسلّم عبد الملك بن مروان بن الحكم حكم الدولة الأموية بعهد من أبيه وذلك في عام ٦٥ هـ، بيد أنه تسلمها والدولة تعصف بها رياح الفتن والاضطرابات والانقسامات؛ فعبد الله بن الزبير رضي الله عنه يُسيطر على الحجاز والعراق وأجزاء من بلاد المشرق ومصر وغربها، وعبد الملك لا يملك من أمره إلا بلاد الشام؛ ولذلك بدأ في توحيد الدولة تحت إمرته، فكانت أولى المناطق التي أراد أن يستعيد سيطرته عليها: العراق ثم الحجاز.

الأحداث السياسية الداخلية في عهد عبد الملك بن مروان

أولاً: المعارضة الشيعية

أ - حركة التوابين - معركة عين التوردة سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م

ب - حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي

ثانياً: حركة ابن الزبير

القضاء على قوة ابن الزبير في العراق تمهيداً لإسقاط حكمه في الحجاز

ثالثاً: الخوارج

أ - الخوارج الأزارقة

ب - الخوارج الصفرية

ج - خوارج اليمامة

رابعاً: حركة ابن الأشعث

حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي

هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب، كان والده الأمير أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف ابن عقدة الثقفي، أسلم في حياة النبي ﷺ، ولم نعلم له صحبة، استعمله عمر بن الخطاب على جيش، ففزا العراق، وإليه تنسب وقعة جسر أبي عبيد، ونشأ المختار، فكان من كبار ثقيف، وذوي الرأي، والفصاحة، والشجاعة والدهاء وقلة الدين، وقد قال النبي ﷺ: «يكون في ثقيف كذاب ومبير»، **مسلم رقم ٢٥٤٥**. فكان الكذاب هذا، ادعى أن الوحي يأتيه، وأنه يعلم الغيب، وكان المبير الحجاج، قبهما الله، **سير أعلام النبلاء (٥٣٩/٣)**، ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ، وهو من الشخصيات التي حفل بها العصر الأموي، والتي كانت تسعى لها عن دور، وتسمى إلى السلطان بأي ثمن، فتقلب من العداء الشديد لآل البيت على ادعاء حبهم والمطالبة بثأر الحسين. وبالمناسبة هو الذي أشار على عمه سعد بن مسعود الثقفي بالقبض على **الحسن بن علي** وتسليمه إلى معاوية، لينال بذلك الخطوة عنده، ثم حاول الاتصال بعبد الله بن الزبير والانضمام إليه، وشرط عليه شروطاً، منها: أن يكون أول داخل عليه، وألا يقضي الأمور دونه، وإذا ظهر استعان به على أفضل أعماله، وباختصار أراد أن تكون له كلمة في دولته، ولكنه لم يجد تجاوباً من ابن الزبير، فانصرف عنه إلى **الكوفة**، حيث كان الأمر فيها مضطرباً، فأراد أن يصطاد في المياه العكرة، ولم يجد فيها ورقة رابحة سوى الادعاء بالمطالبة بدم الحسين وآل البيت، **وادعى أن لديه تفويضاً بذلك من محمد بن علي بن أبي طالب، الملقب بابن الحنفية**، ولكنه لم يكن صادقاً في ذلك، بل قرر أن يركب تيار الشيعة ليصل إلى هدفه وهو الحكم والسلطان^(١).

وقد عبر هو نفسه عن ذلك في حوار مع رجال من رجاله الذين أخلصوا له، وكانوا يظنونهم صادقاً في دعوته للثأر لآل البيت، وهو السائب بن مالك الأشعري. فقد قال له المختار عندما ضيق عليه وصعب الخناق واقتربت نهايته: ماذا ترى؟ فقال له السائب: الرأي لك؟ قال: أنا أرى أم الله يرى؟ قال: الله يرى، ويحك أحقق أنت! إنما أنا رجل من العرب **رأيت ابن الزبير** انتزى على الحجاز، **ورأيت نجدة** انتزى على اليمامة، **ومروان** على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد، فكنت كأحدهم إلا أنني قد طلبت وبالغت في ذلك إلى يومي هذا، فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية، فقال السائب: إنا لله وإنا إليه راجعون. قال السائب ذلك لما تبين له أن المختار صنع كل ما صنع من أجل السلطان وحده، ولذلك يصف الذهبي المختار بالكذب وقلة الدين^(٢).

١ - ٢ - د. علي الصلابي، الدولة الأموية، ص ٥٨٢ - ٥٨٤.



الوضع السياسي العام بعد ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي

ظهر المختار في الكوفة في الوقت الذي كان فيه سليمان بن صرد الخزاعي -زعيم التوابين- يستعد للذهاب إلى الشام، لقتال عبيد الله بن زياد، فحاول تثبيط الناس عنه، وقد نجحت دعايته وتجمع حوله نحو أئمين من الشيعة، وبقيت غالبيتهم مع سليمان بن صرد، وكانت نتيجة معركة **صين الورد** من مصلحة المختار، فقد جاءت مصدقة لتوقعاته، كما أنه انفرج بزعامة الشيعة، ولجأ إليه الفارون من المعركة، فقويت حركته وكثر أتباعه، ثم ازداد مركزه قوة بانضمام **إبراهيم بن الأشتر النخعي** إليه، وهو من زعماء الكوفة، فتار على **عبيد الله بن مطيع الهدوي**، أمير الكوفة، من قبل **عبيد الله بن الزبير**، فأخرجه منها وأحكم سيطرته عليها. ولكي يثبت دعواه في صحة دعوته في المطالبة بدم الحسين، فقد تتبع قتلته فقتل معظمهم في الكوفة، ثم أعد جيشاً جعل على قيادته إبراهيم بن الأشتر، وأرسله إلى قتال عبيد الله، فالتقى به عند **نهر الخازر بالقرب من الموصل**، وحلت الهزيمة بجيش ابن زياد، الذي خر صريعاً في ميدان المعركة سنة 6٧هـ. وقد شرع المختار في تتبع قتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكر بلاء من ناحية ابن زياد، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وظفر برؤوس كبار منهم، كعمربن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذي قتل الحسين، وشمر بن ذي الجوشن أمير الألف الذي وأوا قتل الحسين، وسان بن أبي أنس، وخولي بن يزيد الأصبحي، وخلق غير هؤلاء. وكان **مقتل عبيد الله بن زياد** في يوم عاشوراء سنة **سبع وستين**، ثم بعث إبراهيم بن الأشتر برأس ابن زياد إلى المختار، وتماظم نفوذ المختار بعد انتصار جيشه على جيش ابن زياد، و**سيطر على شمالي العراق والجزيرة**، وجعل يولي العمال من قبله على الولايات، ويجيبى إليه الخراج، وانضم إليه عدد كبير من الموالي ليغضهم لبني أمية من ناحية، ولأنه أعقد عليهم الأموال من ناحية ثانية. وبدا كما لو أنه أقام دولة خاصة به في العراق بين دولتي ابن الزبير في الحجاز، وعبد الملك بن مروان في الشام. د. الصلابي، المرجع السابق.

آل الصحابة ..
محبة وقرابة ..



المصاهرات بين آل علي بن أبي طالب وآل الزبير بن العوام رضي الله عنهما

١٤ مصاهرة
بين آل علي وآل الزبير
خلال ١٠٠ عام

قصي بن كلاب



ملحوظة مهمة ، هذه الشجرة تشمل بعض المصاهرات والأنسب لا كلها

علاقة زوج علاقة ابوة وبنوة صحابي

قال تعالى : (وَلَمَّا رَسُوهُ لَمْ يَلْبَسْهُ اللَّهُ وَاللَّيْلِ لَمَّةً شَدَّاهُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَةً مِنْهُمْ) (الفتح : ٢٩)
بهذه الشجرة شهدت ونقلت مصادر المسلمين لما يؤكد استمرار العلاقة الحميمة بين آل والأصحاب وقرابهم عبر الأجيال ، فنحدر من المدوس في التاريخ .

الموافق ١٣ فبراير ٢٠٢١
- تحرير لادن هبيب ٥٧
- مستشاركات نظم الرجال للتراثي الترجمة ١٩٢٩
- الجدي في أخبار الخلفاء - علي بن محمد الطائي ١٩٥
- المطبوعات الكبرى لادن سنة ٢٢٧/٤
- نسب القرش القرشي ٢٦-١٩
- تاريخ طبرستان لادن هبيب ٢٢١
- جغرافية تشاد العرب لادن هبيب ٢٢٢
- سيرة النبوة لادن هبيب ٢٢٣
- معجم رجال الحديث لادن هبيب ٢٢٤
شاهادة عبد الله المسافر - مطبعة ١ شارع أحمد المهدي - منزل ٢١ - هاتف : ٢٥١٠٢٠٣ - فاكس : ٢٥١٠٢١٠
ص.ب. ١٢٤١١ الشامية الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت - Email : almahabbah@gmail.com
www.almahabbah.net

ثانياً، حركة عبد الله بن الزبير

أدى زوال المختار من الميدان السياسي إلى انحصار المنافسة على زعامة العالم الإسلامي بين عبد الملك وعبد الله بن الزبير. ويبدو أن الأول لم يكن قادراً على التصدي للزبيريين في العراق والأقاليم الشرقية نظراً لتمرصه لبعض المشكلات الداخلية والخارجية التي تطلب حلها جهوداً خاصة.

كان **الوضع الداخلي** الهاجس الرئيس للخليفة الأموي، حيث كان البيت الأموي لا يزال منطوياً على بعض خلافاته، وتحاك فيه المؤامرات. ويبدو أن عبد الملك عندما اتخذ قراره بالتصدي لابن الزبير، وجد نفسه مضطراً لمعالجة بروز عمرو بن سعيد بن العاص كمنافس له على الزعامة الأموية، وقد نجح في القضاء عليه وأعاد اللحمة إلى البيت الأموي. كما أنهى مشكلاته بالحكمة مع حاكم **قرقيسية** زفر بن الحارث، ونجح في التخلص من نائل الجذامي حاكم **فلسطين** المؤيد لابن الزبير.

أما **الوضع الخارجي** فقد انتهجت الإمبراطورية البيزنطية في عام (٧٠ هـ / ٦٨٩ م) سياسة أشد نشاطاً وفاعلية على حدود الثغور الإسلامية منتهزة فرصة حدوث الاضطرابات داخل الصف الإسلامي، فاضطر عبد الملك أن يعقد معاهدة مع الإمبراطور جسنيان الثاني لضمان هدوء هذه الجبهة، مقابل دفع ضريبة مالية. وبذلك يكون عبد الملك، قد حسم مختلف المشكلات لصالحه وأضحى نظامه من القوة ما يكفي للمراهنة على صعوبة إسقاطه من جهة، والقضاء على حركة ابن الزبير من جهة أخرى.

وأدرك الخليفة الأموي **أن قوة ابن الزبير تكمن في العراق** وأن القضاء عليه في هذا الإقليم سيؤدي حتماً إلى إسقاط النظام الزبيرى بكامله لأن عوامل الصمود في الحجاز تكون قد فقدت الكثير من دعائمها، لذلك خرج على رأس جيش كبير إلى العراق، في حين تحرك مصعب من الكوفة باتجاه الشمال للتصدي له.

وانتهج عبد الملك، في غضون ذلك، خطة ذكية لإضعاف قوة خصمه، فكتب زعماء العراق في جيشه يستميلهم للانضمام إليه، كما كاتبه هؤلاء يدعوه إليهم. وقد علم مصعب بهذه المراسلات، إلا أنه لم يتخذ بحقهم أي إجراء. ويبدو أنه لم يشأ إحداث شرخ في صفوفه، وهو على أهبة الاستعداد لدخول معركة. إلا أنه أظهر نفسه هائداً قصيراً النظر بفعل أن الخيانة أثرت على قوته حين تخلى هؤلاء الزعماء عنه وانضموا إلى خصمه مما كان سبباً من أسباب خسارته.

ومهما يكن من أمر، فقد التحم الجيشان على **نهر الدجيل عند دير الجاثليق بمسكن** في (شهر جمادى الآخر عام ٧٢ هـ / شهر تشرين الأول عام ٦٩١ م)، وأسفر اللقاء بينهما عن انتصار واضح للجيش الأموي وقتل مصعب في المعركة، ودخل عبد الملك الكوفة على إثر هذا الانتصار.

لم يضع عبد الملك فرصة طُف ثمار انتصاره، فقد **أسرع بإرسال جيش إلى الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي ليوجه إلى عبد الله بن الزبير الضربة القاضية**. حاصر الحجاج مكة، وشدد على ابن الزبير الذي أضحى في موقف حرج بفعل انفضاض أتباعه من حوله نتيجة منح الحجاج الأمان لهم.

وبالرغم من ذلك، لم تخف عبد الله شجاعته، حتى في هذه اللحظة الأخيرة من حياته، واضعاً النهاية لأخطر حركة واجهت الدولة الأموية. وكان ذلك في (السابع عشر من شهر جمادى الأولى عام ٧٣ هـ / شهر أيلول عام ٦٩٢ م). **وبهذا انتهت خلافة عبد الله بن الزبير التي استمرت تسع سنوات تقريباً**. وبوفاته، وخضوع الحجاز لعبد الملك بن مروان، توحد العالم الإسلامي من جديد تحت زعامة هذا الأخير الذي أضحى الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين. د. طقوش، تاريخ الدولة الأموية، ص ٧٩ - ٨٠.

القضاء على الدولة الزبيرية



١ لم يشأ **عبد الملك** أن يسير للعراق إلا بعد أن يوطد دعائم حكمه في الشام، فقضت هذه السنين في تحقيق هذا الهدف، فقد حل مشكلاته مع **زفر بن الحارث الكلابي** الذي كان معتمداً في **قرقيسيا**، مهدداً بذلك إقليم الجزيرة كله، وقد عالج عبد الملك مشكلة زفر بالحكمة والسياسة، واصطلح معه، وأنهى بذلك مسألة قرقيسيا التي استمرت حوالي سبع سنين كالثقوبة في جنب دولته.

٢ **مسكن**: وهو موضع قريب من أوأنا على نهر دجيل عند دير الجثاليق به كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان ومصعب ابن الزبير في سنة ٧٢ فقتل مصعب وقبره هناك معروف، الحموي، معجم البلدان.

٣ سارع **عبد الملك بن مروان** إلى **العراق بجيشه**، وجعل على مقدمته أخاه محمد بن مروان، و**نزل بمسكن**، وكان **مصعب بن الزبير** قد علم بمسيره، ونزل هو بمسكن أيضاً، **مقدمته** إبراهيم بن الأشتر، وأخذ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يهدم ويمنيهم.

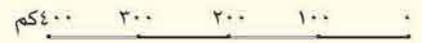
٤ قالت سكينه بنت الحسين في رثاء زوجها مصعب، **فإن تقتلوه تقتلوا الماجد الذي يرى الموت إلا بالسيف حراماً وقبلك ما خاض الحسين منية إلى القوم حتى أوردوه حماماً**

٥ **ويعد قتال شديد، وبسالة قوية قتل عبد الله بن الزبير يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة وله ثلاث وسبعون سنة، وتولى قتله رجل من مراد.**

٦ كان انتصار **عبد الملك بن مروان** على مصعب بن الزبير في معركة **دير الجثاليق** إيذاناً بانتهاء دولة عبد الله بن الزبير؛ فقد استقرت له الأمور في جميع الأمصار الإسلامية، وانحصرت دولة **ابن الزبير في الحجاز**، ولم يكن في استطاعته الصمود، لاهتقاره إلى المال والرجال، كما أن مقتل أخيه مصعب قد فت في عضده وأصابه الإحباط، ولكنه لم يلق رايته، وظل يقاوم حتى النهاية.. لم يضع عبد الملك بن مروان وقتاً بعد انتصاره على مصعب، وقرر أن يقضي نهائياً على دولة ابن الزبير ووقع الخيار لقيادة الجيش للقضاء على ابن الزبير على **الحجاج بن يوسف الثقفي**، وتوجه بجيشه إلى الحجاز، **واستقر بالطائف**، وبدأ يرسل بعض الفرق العسكرية إلى مكة، وكان ابن الزبير يرسل إليه يمثلها فيقتلون وتعود كل فرقة إلى معسكرها.

٧ أراد **الحجاج بن يوسف الثقفي** أن ينهي أمر ابن الزبير فكتب إلى عبد الملك ابن مروان يطلب منه الإذن بقتاله ومناجزة، فأجابه عبد الملك بقوله: **افعل ما ترى**، وهذه الإجابة تحمل في مضمونها الموافقة على طلب الحجاج المتحفز لقتال ابن الزبير، وتوجه **الحجاج بن يوسف** بجميع جيشه إلى **مكة** ونصب المنجنيق على جبالها، وبدأ يضرب ابن الزبير داخل الحرم ضرباً متواصلًا، وفي الوقت نفسه كانت بقية جيشه يقاتلون البقية الباقية مع ابن الزبير.

٨ في محاولة لإنهاء ابن الزبير قام الحجاج بفرض حصار اقتصادي على مكة، ويروي ابن حزم أن عبد الملك بن مروان كان يسهم في فرض هذا الحصار؛ فقد أوكل إلى خالد بن ربيعة مهمة قطع الميرة عن ابن الزبير وأهل مكة، وقد أثر هذا الحصار على ابن الزبير وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى إن ابن الزبير اضطر إلى ذبح فرسه ليطعم أصحابه، وفي الوقت نفسه كانت العير تحمل إلى أهل الشام من عند عبد الملك، السوق، والكعك والدقيق، وقد تروى على ترددي الأحوال داخل مكة، أن بدأ التحاذل يدب بين أنصار ابن الزبير، وبدأوا ينسحبون واحداً تلو الآخر، ومما شجع على تحاذل هؤلاء إعطاء الحجاج الأمان لكل من كف عن القتال وانسحب من جيش ابن الزبير. د. علي الصلابي، الدولة الأموية.



ثالثاً: القضاء على حركات الخوارج

كان أول موقف سياسي منظم اتخذته الخوارج في العهد الأموي، هو التحالف مع عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما في مكة المكرمة.

بيد أن الخوارج اكتشفوا أن ابن الزبير مخالف لهم في الفكر؛ فغادروا مكة، وانقسموا على إثر ذلك إلى عدة فرق نتيجة لوقوعهم في صراعات، واضطرابات داخلية تعود في جوهرها إلى نواح سياسية، وعقدية وقبلية في آن واحد، فجاءت فرقتها خلال هذه الفترة على النحو التالي:

أ - الخوارج الأزارقة

- ١ - بعد مقتل مصعب بن الزبير وسيادة عبد الملك بن مروان على العراق، احتل الأزارقة الأهواز وأخذوا يهددون **البصرة**، والمناطق المجاورة لها.
- ٢ - عبد الملك يُعين المهلب بن أبي صفرة لقتال الأزارقة.
- ٣ - بعد ثلاث سنوات من الصراع المرير، انتصر المهلب بن أبي صفرة على الأزارقة بمساندة آل صلب وهو الحجاج بن يوسف.

ب - الخوارج الصفرية

- ١ - إذا كان الأزارقة هددوا البصرة؛ فإن الخوارج الصفرية هددوا **الكوفة**؛ منطلقين من **الموصل** في عام ٧٦ هـ حيث احتلوا **الكوفة والمدائن وخانقين** بعد أن تغلبوا على الجيوش الأموية.
- ٢ - رأى الحجاج التصدي لقوة الخوارج الصفرية، فخاض **معركة الدجيل** سنة ٧٧ هـ.
- ٣ - بعد انكسار الخوارج بقيادة شبيب بن يزيد بن نعيم، انسحبوا عبر جسر من القوارب أقاموه على النهر، وكان هو أول الفارقين فيه، فخلفه البطين الذي تم إلقاء القبض عليه وقتله الحجاج الثقفي. فطلب الصفرية عندئذ الأمان فمنحوا إياه.

ج - خوارج اليمامة

- ١ - هاجم خوارج اليمامة بقيادة نجدة بن عامر الحنفي **البحرين** سنة ٦٥ هـ ومناطق أخرى على الشريط الساحلي لإقليم البحرين؛ مستغلين حالة الفوضى والاضطراب السائدة آنذاك، وهددوا سلطة ابن الزبير نفسه في الحجاز.
- ٢ - عندما دخل العراق تحت حوزة عبد الملك وجه لهم قوة اصطدمت معهم في موضع **المشقر** في البحرين، فدارت الدائرة عليهم، وقُتل أبو فديك واضطر أتباعه إلى التسليم، وبهذا الشكل سقطت الخوارج النجدية، في اليمامة والبحرين بحيث لم تقم لهم قائمة بعد ذلك.

رابعاً: حركة عبد الرحمن بن الأشعث

هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي من أشرف الكوفة والقادة الشجعان. اشترك مع مصعب بن الزبير في قتال المختار بن أبي عبيد الثقفي، وقُتل والده في المعركة التي دارت بين الفريقين في حروراء (موضع بظاهر الكوفة تنسب إليه الحرورية من الخوارج). وأرسله بشر بن مروان والي الكوفة سنة ٧٢هـ على رأس خمسة آلاف مقاتل مدداً للمهلب بن أبي صفرة في حرب الخوارج الأزارقة، وأمره بعد الانتهاء من غزاته أن ينصرف إلى الري. وفي سنة ٧٦هـ أمر الحجاج بن يوسف الثقفي ابن الأشعث أن يخرج في طلب شبيب الخارجي وأصحابه فانتخب ستة آلاف من الفرسان وأخرج ستمئة من قومه من كندة وحضرموت، ولكنه عجز عن القضاء على شبيب.

وفي سنة ٨٠هـ وجه الحجاج ابن الأشعث على رأس أربعين ألف مقاتل من الكوفة والبصرة لحرب رتبيل في سجستان بعد امتناعه عن دفع الخراج، وإيقاعه بالمسلمين الذين كانوا مع والي سجستان عبيد الله بن أبي بكر. ويقال إن عم عبد الرحمن إسماعيل بن الأشعث نصح الحجاج ألا يرسل عبد الرحمن على رأس ذلك الجيش لأنه يخاف خلافه، فقال الحجاج: «... هولي أميب، وفي أرغب من أن يخالف أمري أو يخرج عن طاعتي». وأمضاه على ذلك الجيش، فخرج بهم حتى قدم سجستان، فجمع أهلها وطلب منهم تجهيز أنفسهم، والانضمام إلى جيشه لملاقاة عدوهم، وبلغ ذلك رتبيل، فكتب إلى ابن الأشعث يعتذر إليه مما أصاب المسلمين، ويخبره أنه كان لذلك كارهاً، وأنهم ألقوه إلى قتالهم، ويسأله الصلح، ويعرض عليه أن يقبل منه الخراج، فلم يجبه ابن الأشعث ولم يقبل عرضه، وأراد أن يبتدع خطة جديدة في القتال تخالف الخطط التي سار عليها أسلافه في غزواتهم السريعة وأن يكون فتحه للمنطقة فتحاً مكيناً، ثابت الأركان تستقر فيه هيبة الدولة، وتدخل البلاد المفتوحة نهائياً في عداد البلاد الطائفة، فكان يضم إليه البلاد منطقة منطقة، وسيطر عليها سيطرة أكيدة ويضع حاميات عسكرية في القلاع والأماكن الخطيرة التي كان يهددها الأعداء، وكلما سقطت في يده منطقة بعث إليها بعامل، وبعث معه الأعوان، ونظم البريد بينها وبين مركز قيادته، حتى يضمن استتباب الأمر له فيها، واستطاع على هذا النحو أن يضم إليه جزءاً كبيراً من البلاد. ثم توقف مدة حتى يعتاد جنده الحياة في تلك البلاد الغربية الوعرة ويعرفوا مسالكها، وكتب إلى الحجاج يعلمه بما فعل. فاتهمه الحجاج بالضعف والعجز وأجابه «إن كتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح إلى المواعدة، قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً، فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم، والهدم لحصونهم وقتل مقاتلتهم، وإلا فأخوك إسحاق بن محمد أمير الناس».

استشار ابن الأشعث من معه، فلم يروا رأي الحجاج، واتفقوا على نبذ طاعته، وبايعوا عبد الرحمن على مخالفة الحجاج فصالح ابن الأشعث رُتْبِيل، وأقام عمالاً له في أهم مدن سجستان وعاد بجيشه سنة ٨١هـ إلى العراق، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره الخبر ويسأله أن يمدّه بالمقاتلة. **وتوجه الحجاج إلى البصرة حيث التقاه ابن الأشعث على نهر الدجيل^(١) في الأهواز، وهزم الحجاج أول الأمر وتراجع حتى نزل الزاوية، وخطى البصرة لأهل العراق، ثم لم يلبث أن انتصر على ابن الأشعث في معركة الزاوية، وتمكن من دخول البصرة ثانية، في حين توجه ابن الأشعث إلى الكوفة واستطاع أن يدخلها ويستولي على بيت المال فيها. فلما بلغ الخبر الحجاج توجه بجنده يريد الكوفة وعسكر بدير قُرّة، وانضم إلى ابن الأشعث أهل الكوفة والبصرة والقراء وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم فكانوا مئة ألف ممن يأخذون العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم. وبلغ ذلك عبد الملك، فأرسل إلى الحجاج مدداً من أشرف أهل الشام والجزيرة في سبعين ألفاً، ودامت الحرب بين الطرفين مئة وثلاثة أيام، وانتهت بهزيمة ابن الأشعث في معركة «دير الجماجم» سنة ٨٣هـ، ثم هزيمته الفاصلة في «مسكن» في العام نفسه، وتراجع ابن الأشعث إلى السوس، ثم كرمان، حتى وصل إلى كابل مع رجاله فأكرمهم رُتْبِيل واستبقاهم عنده. إلا أن جماعة من أهل العراق لحقوا بابن الأشعث وأقتعوه بالخروج معهم والعودة إلى القتال، فوافقهم واستولى على بعض المواقع في خراسان. ولما بلغ هراة أحس أنه لن يستطيع الاعتماد عليهم وأنهم سيخذلونه، فقرر الالتجاء ثانية إلى رتبيل إلا أن الحجاج هدد رُتْبِيل، بغزو بلاده إن لم يسلمه ابن الأشعث، ووافق رتبيل شريطة ألا تغزى بلاده عشر سنين، وأن يؤدي بعد هذه السنين العشر مئة ألف درهم في كل سنة.**

أدرك ابن الأشعث أنه سيُسَلَّم إلى عمارة بن تميم اللخمي قائد جيش الحجاج، فتحنن غفلة من الحرس وألقى بنفسه من فوق القصر فمات واحتز جند رتبيل رأسه وأرسلوه إلى الحجاج سنة ٨٥هـ، وانتهت بموته ثورة كانت من أقسى الأزمات التي واجهتها الدولة الأموية، وتعرض فيها مركز الحجاج لامتحان عسير خرج منه منتصراً^(٢).



١ - **دَجِيل:** اسم نهر في موضعين أحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت...، ودجيل الآخر: نهر بالأهواز حضره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس؛ وقال حمزة: كان اسمه في أيام الفرس ديلداكوك ومعناه دجلة الصغيرة فقرب على دَجِيل، ومخرجه من أرض أصبهان ومصبه في بحر فارس قرب عبّادان، وكانت عند دجيل هذا وقائع للخوارج، وفيه غرق شبيب الخارجي، الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٣.
٢ - نجدة خمّاش، الموسوعة العربية الرقمية.



الموقف العام بين المسلمين وحاكم كابل «رتبيل» .

عبد الملك بن مروان يكلف الحجاج بن يوسف بإعداد جيشاً كبيراً في عام ٨٠ هـ، لمواجهة ملك كابل، فانتدب الحجاج لهذه المهمة القائد عبد الرحمن بن الأشعث، وتشير الأسهم الخضراء على الخارطة بمسير الجيش الإسلامي إلى كابل. حاكم كابل ينسحب من ملاقاته الجيش الإسلامي، ويلجأ إلى المناطق الجبلية الوعرة، مما أربك حسابات ابن الأشعث الذي رأى عدم التوغل في المناطق الوعرة، واكتفى بانتصاراته الجزئية المحدودة، وانتهى قرار ابن الأشعث بتجميد العمليات العسكرية لمدة سنة كاملة، والتراجع إلى بست «بستك» .



جبال هندوكوش في أفغانستان وقفت سداً منيعاً أمام تقدم قوات عبد الرحمن بن الأشعث

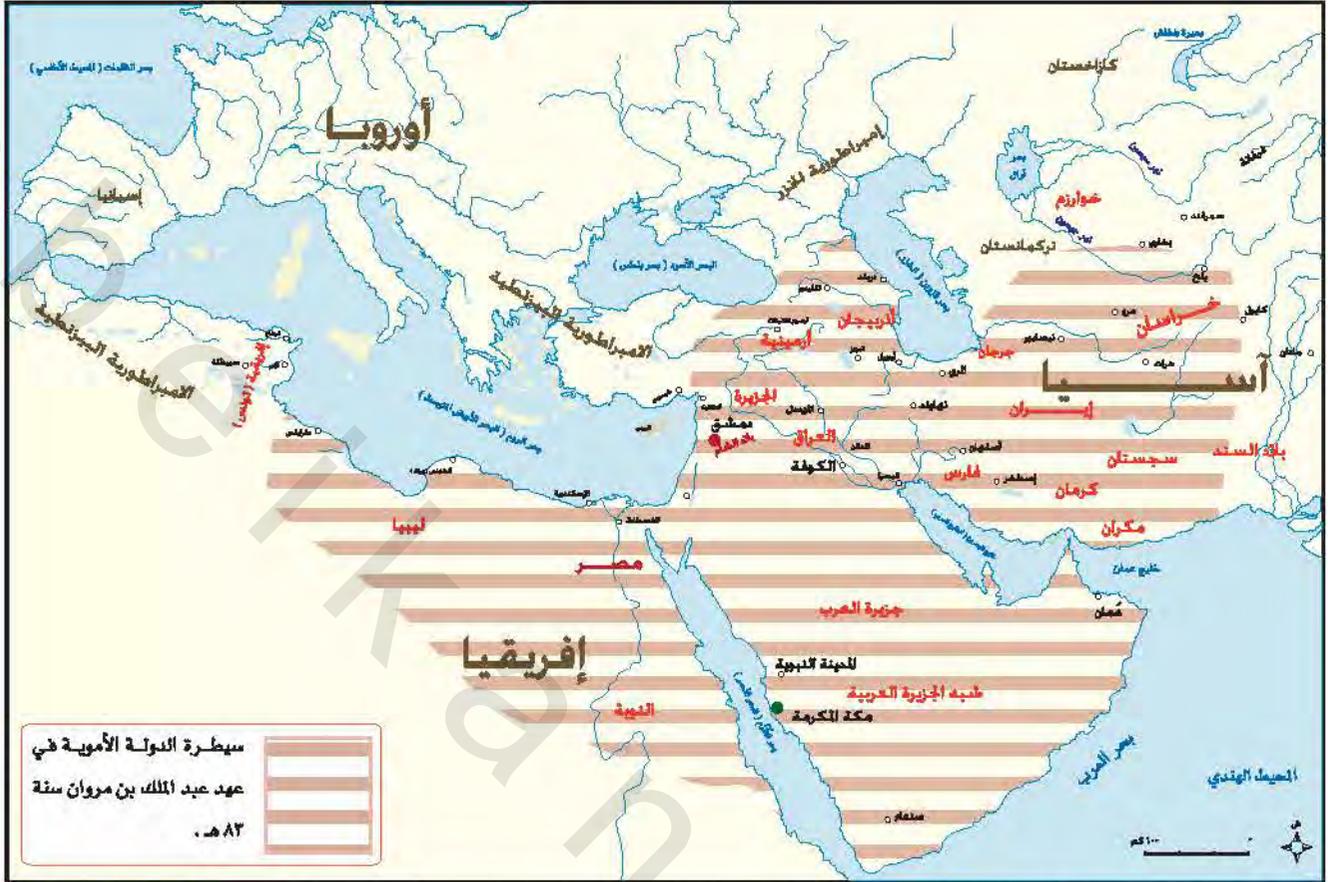
لم يستجيب الحجاج لقرار ابن الأشعث بالتوقف عن المضي قدماً في ملاقاته جيش "رتبيل" بل اتهم ابن الأشعث بالعجز والضعف والخور؛ لذلك هدده الحجاج بعزله إذا خالف أمره. شعر ابن الأشعث بالإهانة في مخاطبة الحجاج له بهذا الأسلوب المقيت؛ مما أثار أتباعه الذين رأوا في هذه السياسة الخرقاء مؤامرة كبرى ضدهم دون عودتهم إلى أرض العراق، فكان الموقف في "بستك" أقرب إلى التشنج، فقام ابن الأشعث بالضرب على الوتر الديني لإثارة الحماس في أتباعه ضد الحجاج، فقام ابن الأشعث بمقد هدنة مع "رتبيل" ليكون أكثر حرية في التصرف، وليؤمن خط الرجعة له.





بعد أن حقق **ابن الأشعث** عدداً من الانتصارات غرّه ذلك، وأعلن العصيان، وخلع طاعة الخليفة، وكان في نفسه عجب وخيلاء واعتداد كرهه، وبدلاً من أن يكمل المهمة المنوطة بها صاد ثائراً على الدولة الأموية مدفوعاً بطموحه الشخصي وتطلعه إلى الرئاسة والسلطان.

ووجد في أهل العراق ميلاً إلى الثورة والتمرد على الحجاج، فتلاقت الرغبتان في شخصه، وأزره عدد من كبار التابعين اغتروا بدعوته، مستغلين قتال الحجاج بسبب ما نُسب إليه من أعمال وأفعال، وحالف النصر ابن الأشعث في جولاته الأولى مع الحجاج، واضطرب أمر العراق وسقطت البصرة في أيدي الثوار، غير أن الحجاج نجح في أن يسترد أنفاسه، وجاء المدد من دمشق وواصل قتاله ضد ابن الأشعث، ودارت معارك طاحنة حسمها الحجاج لصالحه، وتمكن من سحق عدوه في معركة **دير الجماجم** سنة (٨٢ هـ = ٧٠٢م)، والقضاء على فتنته. أحمد تمام.



الوضع السياسي العام للدولة الأموية بعد القضاء على الدولة الزبيرية و الحركة المختارية

شهد عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حركات أخرى معادية لحكمه؛ لكنها كانت محدودة النتائج ولم تشكل خطراً جدياً على مصير الخلافة، ولم تترك أثراً على المجتمع الإسلامي آنذاك، أثارها قساوة الحجاج وسياسته الاقتصادية، نذكر منها: حركة عبد الله بن الجارود، وخروج قبائل الأزدي في عمان . وهكذا ثابروا عبد الملك، وجاهد لتوطيد دعائم الدولة الإسلامية تحت قيادته، ونجح في ذلك نجاحاً فائقاً، ومن هنا استحق عن جدارة لقب موحد الدولة الإسلامية أو المؤسس الثاني لدولة الخلافة الأموية بعد معاوية مؤسسها الأول .





العلاقات الأموية البيزنطية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان

فقد المسلمون بعض قوتهم أمام الروم البيزنطيين في عهد الاضطرابات الداخلية التي عصفت بدولتهم، فانتهاز الإمبراطور البيزنطي **جستنيان الثاني** هذه الفرصة ونقض المعاهدة التي سبق وأبرمها البيزنطيون مع المسلمين. وساق جيوشه لقتالهم، فاجتاح بلاد الشام في عام (٧٠هـ/٦٨٩م). في هذه الأثناء وقع الطرف الشرقي للإمبروطورية البيزنطية حادث بالغ الأهمية في تطوير العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين. ففي الحديث عن الشواتي والصوائف التي كان يقوم بها المسلمون ضد الدولة البيزنطية، تحدثنا المصادر عن وجود جماعات من **المردة النصارى** في جبال أمانوس وقد ألفوا جيشاً واتخذت منهم السلطات البيزنطية سياجاً في هذه المنطقة. كان المردة، بحكم موقعهم الجغرافي ووضعهم السياسي، يحمون الدولة البيزنطية، من هجمات المسلمين ويدافعون عن معاقلهم الجبلية المنيعه ضد أي اعتداء خارجي وكثيراً ما توغلو جنوباً حتى وصلوا إلى جبال لبنان. وقد ضايقوا المسلمين فعلاً بما كانوا يشنونه من غارات مستمرة على المناطق المجاورة، خاصة المناطق الساحلية، بتحريض من البيزنطيين، فاضطر **عبد الملك** إلى استرضائهم تقديماً للحرب في هذه المنطقة من جهة، ولتفريغ للمشكلات الداخلية التي استجدت في العالم الإسلامي من جهة أخرى، فعقد مع الإمبراطور البيزنطي **جستنيان الثاني**



الأمانوس: سلسلة جبال تركية شرقي خليج الإسكندرونة، تشرف على سهل قيليقية هي اليوم فيزيل داغ، وارتفاعها ٢,٢٦٠ متراً وتكثر بها الغابات، وتستخرج منها الأخشاب.

كنيسة القديس نيقولاس الأرثوذكسية
بالقرب من الإسكندرونة

المعاهدة في هذا العام (٦٨٩/هـ٧٠م) تمهد الخليفة بمقتضاها أن :

١- يدفع مالا معيناً للإمبراطور البيزنطي يبلغ سنوياً ثلاثمائة وخمسة وستين ألف قطعة ذهبية، وثلاثمائة وخمسة وستين عبداً وثلاثمائة وخمسة وستين جواداً أصيلاً مقابل، وقف الغارات البيزنطية، على الأراضي الإسلامية. ٢- تقسم الدولتان الإسلامية والبيزنطية خراج **أرمينيا وقبرص وإيبيريا**. ٣- تسحب الإمبراطورية البيزنطية **المردة** من منطقة شمالي الشام إلى ما وراء جبال طوروس داخل آسيا الصغرى. ٤- تستمر المعاهدة مدة عشرة أعوام.

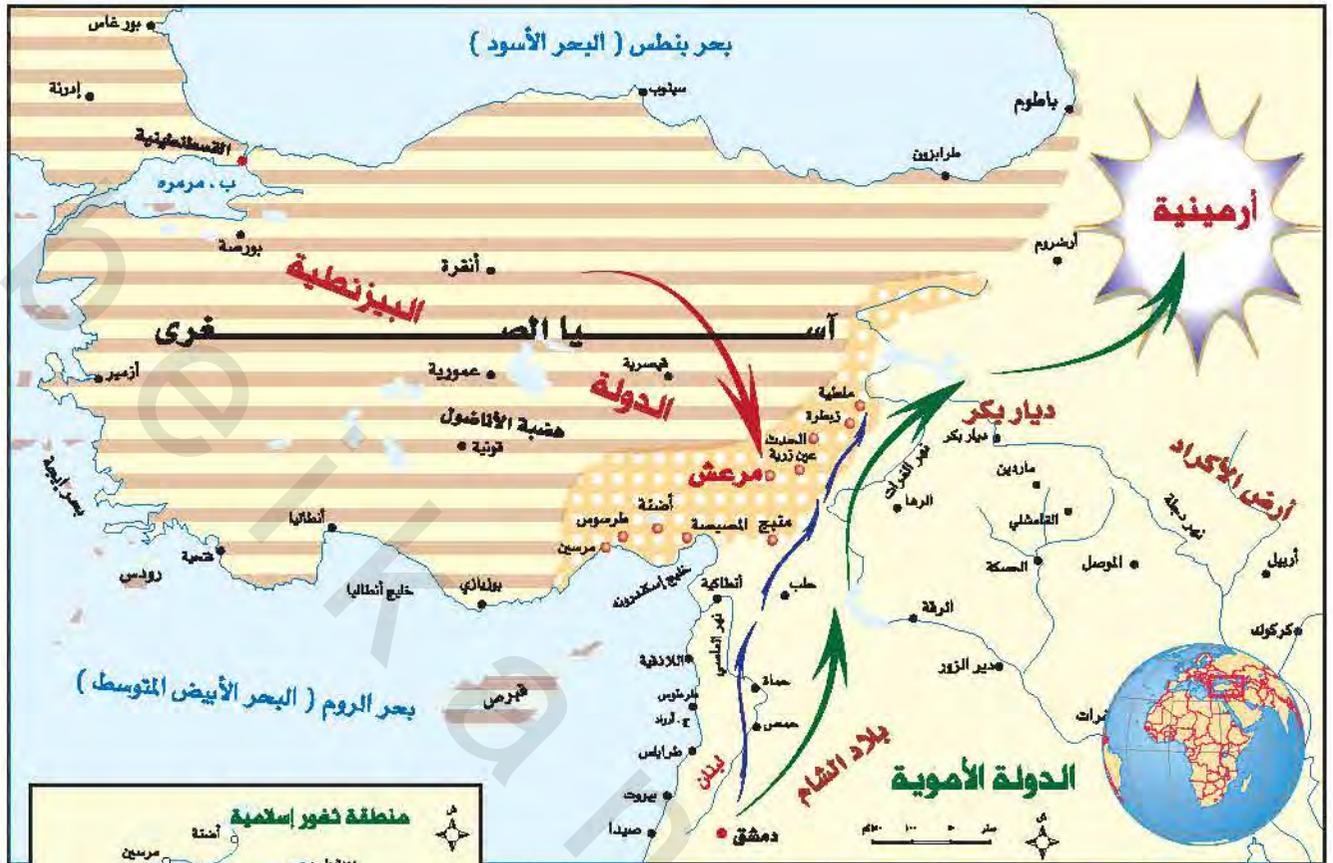
كانت من نتيجة انسحاب المردة من جبال لبنان، وشمالي الشام أن دمر ذلك السور النحاسي الذي كان يحمي آسيا الصغرى من غارات المسلمين، وسمح لهؤلاء تجديد غاراتهم على هذه المنطقة وتوطيد مركزهم في الأقاليم التي فتحوها حديثاً. فمادت غزوات الشواتي والصوائف، ونجم عنها فتح **قيسارية** في عام (٦٩٠/هـ٧١م) ^(١).

وفي عام (٦٩٢/هـ٧٣م) كشف عبد الملك عن نواياه تجاه الإمبراطورية البيزنطية بعد ما فرغ من مشكلاته الداخلية، وعندما قام بضرب الدينانير الذهبية الإسلامية وأرسلها كجزية بدلاً من العملة البيزنطية. وقد حمل هذا التصرف معنى التحدي للإمبراطور من جهة، كما دل على أن الخليفة على وشك استئناف النشاط العسكري على الجبهة البيزنطية من جهة أخرى. وفعلاً، هاجم المسلمين في عام (٦٩٢/هـ٧٣م) آسيا الصغرى وحققوا انتصاراً في **أرمينيا**، في حين اقتصر رد بيزنطة على غزو **مرعش** في عام (٦٩٥/هـ٧٦م)، وهذا دليل على مدى الضعف الذي كانت تعانيه الإمبراطورية البيزنطية آنذاك.

وإذا كان حكم الإمبراطور **جستينيان الثاني** الضعيف انتهى بعزله في عام (٦٩٥/هـ٧٦م)، فلم يكن الأمر أفضل حالاً في ظل خلفه الإمبراطور ليونتيوس حيث استمرت الغارات الإسلامية على مناطق آسيا الصغرى والمناطق الحدودية. ففزا الوليد بن عبد الملك **ملمية** في عام (٦٩٦/هـ٧٧م) كما غزا عبيد الله بن عبد الملك **قاليقلا** عند منابع نهر الفرات. ومن حسن حظ الإمبراطورية البيزنطية أن الاندفاع الإسلامي باتجاه المناطق الحدودية، وفي عمق الأراضي البيزنطية قد تراجع اعتباراً من عام (٧٠٠/هـ٨١م) **بفعل عاملين**؛

الأول؛ اجتياح مرض الطاعون بلاد الشام في عام (٦٩٧/هـ٧٨م). **والثاني**؛ قيام ثورة عبد الرحمن بن الأشعث في عام (٧٠٠/هـ٨٠م) والتي استمرت أربعة أعوام، وقد ذكرناها بالتفصيل في الصفحات السابقة من الأطلس.

استغل الإمبراطور البيزنطي طيباريوس الثالث هذه الأوضاع وكثف نشاطه العسكري وهزم المسلمين عند **سميساط** وفي منطقة **قيليقية** في عام (٧٠٣/هـ٨٤م) إلا أن عبد الملك، وقد فرغ من مشكلاته مع ابن الأشعث، وهاجم إقليم قيليقيا واصطدم بالقوات البيزنطية عند مدينة **سيواس**، وكانت بقيادة الإمبراطور نفسه، وانتصر عليها وبذلك تكون قد عادت سيطرة المسلمين مجدداً على منطقة **أرمينيا**. كما تم فتح **المصيصة**. وهكذا سرعان ما استعادت الدولة الإسلامية تفوقها الملحوظ على البيزنطيين بفعل قيادة عبد الملك الحكيمة ^(٢).



العلاقات الأموية البيزنطية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٢)



فتح هيسارية

سنة ٧١٤ هـ



**دينار من الذهب، من الوجه عليه
صورة جستيان الثاني، ومن الخلف
صورة الصليب المدرج .**

في عام (٧١٢/٦٩٢م) كشف عبد الملك عن نوايا تجاه الإمبراطورية البيزنطية بعد ما فرغ من مشكلاته الداخلية، حينما قام بضرب الدنانير الذهبية الإسلامية وأرسلها كجزية بدلاً من العملة البيزنطية المعروفة « انظر عملة جستيان ».

فتوحات الشمال الإفريقي في عهد عبد الملك بن مروان

كانت الجبهة الإفريقية المحور الجدي لسياسة الفتوح في عهد عبد الملك بن مروان، إذ خاض المسلمون عدة معارك لتصفية **القواعد البيزنطية** على الساحل الشمالي، وإخضاع **البربر** لسلطة الدولة. فبعد أن هدأت أوضاع الخلافة الأموية، نسبياً، وجد عبد الملك أمامه متسعاً من الوقت ليقوم بعمل ما في إفريقيا، خاصة وأنه خشي من انعكاس نتائج التحالف البيزنطي-البربري، وما يمكن أن يسببه من تهديد للحدود الغربية لدولته، فهدد إلى **زهير بن قيس البلوي** بقيادة العمليات العسكرية وأمره بالانتقام من **كسيلة**، واستعادة الأراضي التي أخلاها المسلمون بعد مقتل عقبة. وبتعيين زهير قائداً للجبهة الإفريقية، تبدأ **المرحلة الخامسة** من مراحل فتوح شمالي إفريقيا.

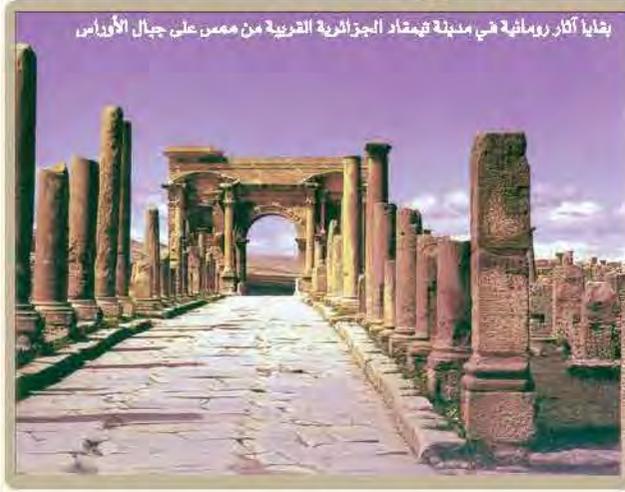
وفور تلقي كسيلة بن ملزم زعيم قبيلة أوربة البرنسية أنباء تقدم الجيش الإسلامي بقيادة زهير نحو القيروان، اجتمع بأركان حربه ليعرض عليهم الوضع علماً بأن الجيش البربري كان عظيماً فقال كسيلة لقادته: "إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة، فإن بها قوماً من المسلمين لهم علينا عهد ونحن إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا، ولكن ننزل على موضع ممس «**ممش**» (جنوب شرقي جبال الأوراس في الجزائر الحالية) وهي على الماء، فإن عسكرنا خلق عظيم، فإن هزمناهم إلى **طرابلس** قطعنا آثارهم فيكون لنا الغرب إلى آخر الدهر، وإن هزمنونا كان الجبل منا قريب فنتحصن به".

ولما علم زهير بخطة كسيلة وأنه اختار موقعاً حصيناً وبه ماء كثير، لذا لم يدخل القيروان وعسكر في ظاهرها ثلاثة أيام حتى استراح هو ومن معه من أفراد جيشه وذلك استعداداً للمعركة الحاسمة والتي يتوقف عليها مستقبل الإسلام في المغرب.

ودارت رحى معركة **ممس أو ممش** ما بين المسلمين بقيادة زهير بن قيس البلوي وبين البربر والروم بزعامة كسيلة بن ملزم، واستحر القتل بين الجانبين، ودارت الدائرة في نهاية المطاف على البربر وحلفائهم الروم وسقط **كسيلة قتيلاً** في المعركة، وطارد المسلمون قلول المنهزمين لتمود للإسلام هيئته في المغرب، ويقضي على آمال الروم في العودة إلى المغرب تحت غطاء التحالف مع البربر، كما أن كسر شوكة البربر البرانس بقيادة كسيلة خاتمة لمقاومة هذه القبائل للجيوش الإسلامية الفاتحة. وقد علق السلاوي على موقعة ممس بقوله: "وفي هذه الواقعة ذل البربر وقتيت فرسانهم ورجالهم،... واضمحل أمر الفرنجة،... وخاف البربر من زهير والعرب خوفاً شديداً، فلجأوا إلى القلاع والحصون، وكسرت شوكة أوربة من بينهم، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى وملكوا مدينة ويلي"^(١).

١- د. سلامة محمد الهرشي، دور قبيلة بني في الفتوحات الإسلامية، موقع قبيلة بني

فتوحات قيس بن زهير البلوي على الشمال الإفريقي ٦٩ - ٧١ هـ



بقايا آثار رومانية في مدينة تيمقاد الجزائرية القريبة من ممر على جبال الأوراس



بعد هذه الموقعة عاد زهير ظاهراً إلى مدينة القيروان فأصلح من شأنها وشأن جامعتها، ثم أرسل حملة استولت على بلد هام شمال القيروان يعرف بالكاف أو الكف ويسميه العرب شقبارية وهو تحريف لاسمه الرومي sicca.vane-rié ولكن المصادر تؤكد لنا أنه إبي أن يقيم فيها، وأنه قال: إني قدمت للجهاد، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلكه- ويملكون ذلك بقولهم بأن زهير كان من رؤساء العابدين وكبار الزهادين، لذا تجده يعود مسرعاً إلى بركة حيث استشهد هناك.

قاعدة انطلاق الجيش الإسلامي بقيادة قيس بن زهير البلوي
خط سير القائد قيس بن زهير البلوي إلى ملاقاة كعبلة وجهه
معركة مامما Battle of Mamma بين المسلمين والروم المتحالين مع البيزنطيين.
الزمان: عام ٦٩ هـ في خلافة عبد الملك بن مروان. المكان: جبال الأوراس بالجزائر. سبب
المرحلة: تحالف (كعبلة) وهو أحد قادة البيزنطيين مع الروم، هزم الروم والبيزنطيين في هذه
المرحلة وكانت حاسمة إذ شغفت مقاومة البيزنطيين بعدها، وضعت أمل الروم في إفريقيا.



ما الذي جعل زهيراً البلوي يعود مسرعاً إلى برقة بعد انتصاره في موقعة ممس؟

إننا لانجد تفسيراً منطقياً لهذه العودة السريعة سوى أن معلومات خطيرة وصلت إليه تحتم عليه الإسراع بالعودة ، وهذا ما حدث بالفعل إذ وصلت إليه أنباء مؤكدة بأن الروم البيزنطيين يقومون بعمليات إنزال لقوتهم في **برقة** ليستعيدوها، ويقطعوا على القوات الإسلامية بهذا طريق العودة ، وقد تحصن الروم في درنة وأخذوا ينقلون إلى سفنهم الأسلاب التي حصلوا عليها في إفريقية وكذلك الأسرى الذين أخذوا من المسلمين .

لقد وصل زهير قرية **درنة** ، وكان قد أعطى أوامره لجيشه بأن يسيروا في وحدات صغيرة من أجل سرعة الحركة ، لقد كان زهير في طليعة الجيش الإسلامي المتجه إلى برقة مع سبعين من أصحابه ، فرأوا الروم يدخلون أسرى المسلمين في المراكب وسط صراخ النساء والأطفال ، فأراد زهير أن ينتظر حتى تكامل قواته، ولكن هول الموقف ورؤية حرائر المسلمين سبايا بأيدي الروم أثار حفيظة مع من زهير فدعوه للقتال ، فقال تنتظر حتى يتكامل الجيش لأن قوة العدو كبيرة، فقال له أحد الجنود : بل جئنا يا زهير ، فمست هذه الكلمة كبرياءه الجهادية فرد عليه بل قتلتني وقتلت نفسك، **فدخل زهير مع الروم في معركة غير متكافئة كانت نتيجتها معروفة** كما قال زهير للجندي ، فاستشهدوا عن بكرة أبيهم وكان ذلك في عام ٦٧١هـ / ٦٩٠م ، ودفن في

درنة قريباً من الشاطئ الذي استشهد فيه وتسمى تلك المنطقة (قبور الشهداء) .

أجل إن التاريخ يذكر زهير بن قيس البلوي سجله الجهادي الطويل الذي توج باستمادة القيروان وتحريرها من يد كسيلة بن ملزم، وأنه ثار لمقبة بن نافع وصعبه من كسيلة الذي قتل هو وعدد ضخم من فرسانه على يد زهير بن قيس البلوي في موقعة ممس أو ممش (٦٦٩هـ / ٦٨٨م) . د. سلامة محمد الهرفي، دور قبيلة بلي في الفتوحات الإسلامية، موقع قبيلة بلي .



مسجد الصحابة بدرنة الليبية؛ نسبة لمجموعة كبيرة من شهداء الفتح الإسلامي للمغرب وعلى رأسهم زهير بن قيس البلوي

حملة حسان بن النعمان الفسائي^(١)

في عام (٦٩٢/٧٤هـ)، وجد عبد الملك نفسه قوياً إلى الحد الذي يمكنه من استئناف سياسة الفتوح في شمالي إفريقيا، خاصة بعد أن تجاوزت الخلافة محنتها في الداخل المتمثلة بالقضاء على ابن الزبير، وجاء اختيار **حسان بن النعمان الفسائي** قائداً جديداً، مؤشراً على ذلك. ويتعين هذا القائد تبدأ المرحلة السادسة من مراحل فتوح شمالي إفريقيا.

كانت فاتحة أعمال حسان فتحه **لقرطاجنة**، سنة ٧٦ هـ، أقوى القواعد العسكرية البيزنطية. وحتى يحول دون عودة البيزنطيين إليها، فقد دمر ميناءها. وقد دعم هذا الفتح الموقف الإسلامي، فقام المسلمون بعمليات سريعة استهدفت المدن الساحلية ففتحوها باستثناء جيوب قليلة منها **سبتة** التي ظلت الحصن القوي للبيزنطيين.

وقد دعم هذا النصر الموقف العسكري الإسلامي في المغرب. ووقع في غضون ذلك تبدل مذهل في موقف البربر، إذ انفرجت قبائل الأوراس بقيادة امرأة غامضة عرفت في المصادر العربية باسم **الكاينة** وهي تتحد من قبيلة جراويبة الزناتية البترية، وقد دانت على ما يبدو، بالعقيدة اليهودية.

ونجحت الكاينة في تحقيق التفاف واسع حول ثورتها من البربر الأوراس ومن بقايا البيزنطيين وهذا ما يفسر احتلالها لمدينة **باغية** الساحلية آخر المعاقل المهمة التي احتفظ بها البيزنطيون، ثم راحت تتحدى المسلمين. ولم يستطع حسان الذي سارع إلى اعتراض تقدمها في **وداي مسكيانة**، من الوقوف في وجه الحشود الضخمة التي تكتلت وراءها حيث لاقى المسلمون العناء والبلاء حتى إنهم سموها يوم المعركة **(يوم البلاء)**، ومما يدل على جسامته الهزيمة أن حساناً اضطر، تحت ضغط الأحداث العسكرية، إلى التراجع عائداً إلى **برقة** في ثالث عملية انسحاب للقوات الإسلامية منذ معركة تهودة.

ونفذت الكاينة في غضون ذلك إستراتيجية جديدة في مواجهة المسلمين قائمة على التدمير كسلاح خاص ضد استقرارهم. وقضى البربر زهاء خمسة أعوام يعملون في تدمير الأرض وتخريبها وحرق الزرع والضرع. وقد أدت هذه السياسة إلى انفضاض بعض البربر، والبيزنطيين عنها خاصة أهل المدن وكبار الملاكين والفلاحين، مما كان له أثر في وضع حد لنهايتها.

أما حسان فقد بقي في **برقة** طيلة هذه المدة متربحاً وصول الإمدادات إليه من العاصمة دمشق ليثأر لهزيمته، وفي الوقت نفسه كان يترصد أخبار الكاينة. ولما علم بتضعف مكانتها استأنف حركة الجهاد. وقد اقترنت عودته، هذه المرة، بتغيير في موازين القوى والتحالفات السياسية، إذ استقبله السكان البيزنطيون والبربر مستغيثين به من الكاينة، وقدموا له الأموال والطاعة. واسترد بعض القلاع مثل **قابس، وقفصة، وقسطيلية، ودخل المغرب الأوسط.**

فتوحات حسان بن النعمان الفسائي على الشمال الإفريقي المرحلة الأولى



يمت عيد الملك حسان بن النعمان سنة ٧٦هـ، ٦٩٥م، للشمال الإفريقي لكفائه، فزحف إليها على رأس أربعين ألف مجاهد. خاض معارك حتى تم له فتح **قرطاج**. مقر حامية الروم. ودمرها، ثم تابع تقدمه، فدمر حاميات الروم المدافعة عن **صقلية** و**بنزرت** و**بيجاية**. ومضى لمحاربة البربر الذين كانت تقودهم الكاهنة (دهينا أو دهبانت ينفاق) من قاعدتها في جبل الأوراس، وحشدت الكاهنة جيشاً كبيراً للقائه، ودارت معركة طاحنة انتصرت فيها الكاهنة، وأسرت ثمانين من أفضل رجال حسان. وأمدته عبد الملك بقوات إضافية، فتمكن من الحصول على معلومات عسكرية عن عدوه، فالتحق بالكاهنة، ودارت رحى معركة رهيبية انتهت بمقتل الكاهنة، في موضع حَمَل اسم بئر الكاهنة. تابع حسان تقدمه حتى أخضع إفريقية. وأقام بالقيروان واهتم ببناء المجتمع الجديد؛ فعمل على نشر الإسلام. وأقبل البربر على الإسلام لحسن سياسته. واهتم بالحركة العمرانية، فطوّر بناء تونس، وجدد بناء مسجدها سنة ٨٤هـ، ٧٠٢م، ودوّن الدواوين وولى الولاية وأقام قاعدة بحرية لبناء السفن ونظّم البحرية ليمنع الروم من معاودة الاتصال بإفريقية. ثم عاد إلى الشام ومعه ٢٥ ألف فارس. واعتزل الأعمال الإدارية في أول عهد الوليد بن عبد الملك. وتوجه إلى أرض الروم غازياً، فتوفي بها.



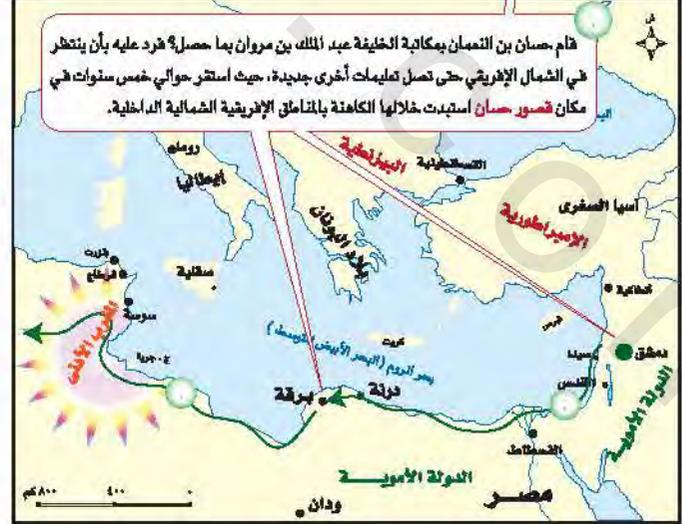
فتوحات حسان بن النعمان الفسافي على الشمال الإفريقي المرحلة الثانية



٢ خلال هذا الانتظار قامت الكاهنة، ظناً منها أن المسلمين، إنما قدموا من أجل الأموال والثنائيم، بتخريب المدن، وقطع الزرع، والشجر، وتطبيق سياسة إحراق الأراضي فكان هذا العمل التخريبي قد زاد من سخط البرابرة عليها وعلى تصرفاتها الحمقاء. وغاب عن ذهنها أن الفتح الإسلامي إنما جاء استجابة للباعث الإيماني بهدف نشر الدعوة الإسلامية وعمل الكاهنة لا تأثر له على هذا الباعث، الذين ييلفون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً.

٤ دارت معركة قوية انتصر فيها المسلمون على جيش الكاهنة وقطع رأسها شوقاً بشر لا يزال يعرف بيئر الكاهنة، وفرت ضول الجيش منزعجة.

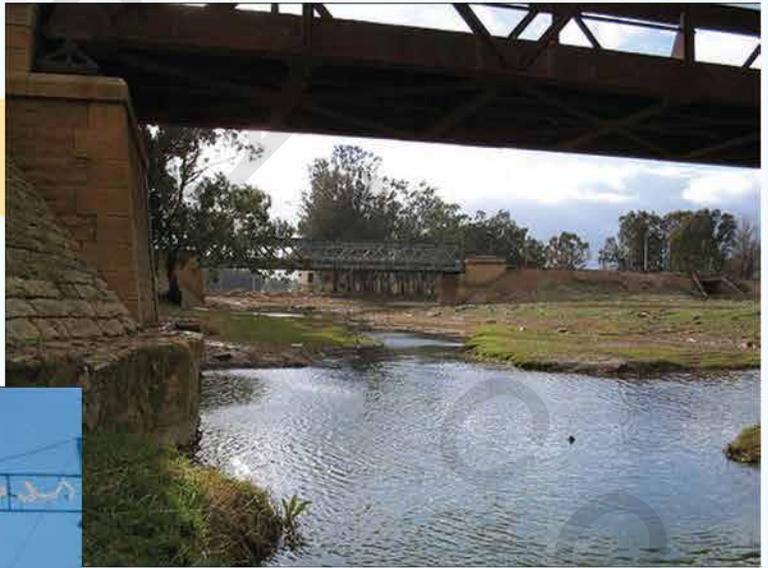
٣ لقد باتت كل الأسباب مهيأة للمسلمين لتحقيق الانتصار على الكاهنة بعد وصول المدد من الشام عام ٨١هـ (٧٠٠م). فرحب البرابرة بالفتاحين بعدما ذاقوا كل أنواع الظلم الذي مارسته الكاهنة ضدهم، وكذا الروم من قبلهم. وجد حسان في مطاردة الكاهنة التي تخلى عنها أكثر قومه حيث استطاع أن يقضي عليها ومن بقي معها في **جبل الأوراس** في موضع عرف فيما بعد بيئر الكاهنة. وكان مقتلها عام ٨٢هـ (٧٠١م) وبعد ذلك استطاع حسان أن يسترد بعض القلاع، مثل: **قابس، وقفصة، وقسطيلية، ودخل المغرب الأوسط.**



قام حسان بن النعمان بمكاجبة الخليفة عبد الملك بن مروان بما حصله فرد عليه بأن ينتظر في الشمال الإفريقي حتى تصل تعليمات أخرى جديدة، حيث استقر حوالي خمس سنوات في مكان **قصور حسان** أسجدت خلالها الكاهنة بالنامق الإفريقية الشمالية الداخلية.



وادي مسكيانة - شرق الجزائر



مدخل مدينة مسكيانة - شرق الجزائر

حسان بن النعمان وبناء مدينة تونس وجامع الزيتونة

ارتبط تاريخ جامع الزيتونة بمدينة تونس ارتباطاً عضوياً، وهو ثاني جوامع المغرب الإسلامي. فبعد مدينة القيروان وجامعها الذي أسسه عقبة بن نافع سنة ٥٠ للهجرة، أتى دور مدينة تونس سنة ٧٩ هـ / ٦٩٨ م. فبسقوط قرطاجة التاريخية، ظهرت للوجود بالقرب منها مدينة جديدة كتب لها أن تخلف جارتها نهائياً، وأن تصبح عاصمة لبلاد التونسية. وكان اختيار حسان بن النعمان لموقعها ناتجاً عن عوامل استراتيجية مرتبطة بالحضور البيزنطي في مياه البحر الأبيض المتوسط، خاصة وأن أطماعهم في منطقة دحروا عنها منذ عهد قريب ما زالت متأججة.

وبالرغم من أن المصادر التي سبقت الفترة الإسلامية تذكر أن **تونس** كانت قرية بربرية ليس لها أهمية تذكر لوجود قرطاج بالقرب منها، فإن الحفريات أثبتت عكس ذلك. ومع الفتح الإسلامي، تغيرت المعطيات، وأصبح من الضروري أن يكون خط المواجهة من الداخل، خاصة وأن البحرية لم تكن تضاهي آنذاك الأسطول البيزنطي.

هكذا إذن أسس **حسان بن النعمان** تونس بين سنتي ٧٩ هـ / ٦٩٨ م و٨٤ هـ / ٧٠٤ م، فاخترت هذا القائد الفاتح المدينة الجديدة، بطريقة ذكية. إذ جعل فيها إضافة إلى الصناعة، مسجداً ذكره البكري، إلا أنه لا يفيدنا إن كان هو الجامع الأعظم الحالي. ويؤكد ابن الشباط والرقيق القيرواني أن عبيد الله بن الحبحاب هو المؤسس للجامع سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م. أما ابن عذاري، فيذهب إلى أن تاريخ التأسيس يعود إلى سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م. لكن هل يمكن الاعتقاد أن المسلمين بقوا طوال ثلاثين سنة من غير جامع يؤمونه ويصلون فيه؟ وهكذا من الممكن تصور أن عبيد الله بن الحبحاب قام بتوسيع الجامع وإضافة بعض الزيادات فيه، لكن من الراجح أن حسان بن النعمان لم يبن جامعاً؛ بل استعمل معلماً قديماً وجعل منه مسجده.

إذ أن بعض العناصر المعمارية تجميلنا نفترض أن جامع الزيتونة ببعض مكوناته الحالية يرجع إلى الفترات التي سبقت دخول المسلمين الفاتحين، وهذا اعتماداً على بعض النقاط، خاصة منها:

(١) أولاً وبالذات نلاحظ أن لأقسام من الجدران السمكية التي تحيط بالجامع من الخارج نمطاً يختلف تماماً عما عهدناه في العمارة الإسلامية بصفة عامة لا في مدينة تونس فقط، بل في البلاد التونسية وما جاورها. فتتكون هذه الأقسام من حجارة ضخمة استعملت في المعالم الراجعة للفترة الرومانية ثم البيزنطية،

لكن يمكن الافتراض أن حساناً أو ابن الحبحاب أعاد استعمال حجارة كانت موجودة في بعض المعالم الرومانية أو البيزنطية؟ وهذا النمط من العمارة نفسه نلاحظه في جامع القصر: فقبل أن يستغل البناؤون هذا المعلم ليصبح جامعاً، أمكن التأكد من أنه كان معلماً دفاعياً يرجع حسب ما توصلنا إليه إلى الفترة البيزنطية، إذ رمم المعهد القومي للآثار والفنون هذا الجامع في بداية الثمانينيات ولا حظنا آنذاك ضخامة سمك جدار القبلة الذي يبلغ ٢,٢٠ م. لذلك أجري سبر أول أمام المحراب، مما أثبت أنه محفور مباشرة في جدار القبلة، مما دفع لمواصلة فتح أسبار أخرى (عدها سبعة) في كامل أنحاء المعلم. ووضحت هذه الأسبار عن طريق اللقى الأثرية وكذلك عن طريق وجود جدران ما زالت قائمة الذات وبعض الأسس والأرضيات، إلخ. أن المعلم يرجع إلى الفترات السابقة لدخول المسلمين الفاتحين، وتيقنا من أن البنائين استغنوا عن السقف الأصلي للمعلم، وعن عقودها التي عثرنا على أقسام منها تحت سطح الأرض. وبعد إعادة بناء السقف، بقيت الجدران على حالها بمكوناتها وبسمكها الذي كانت عليه خلال الفترة البيزنطية، وهي مشابهة في نمطها وفي ضخامتها لبعض الأقسام التي ذكرناها بعد بالجامع الأعظم. وهكذا تكاد تستقل الجدران الخارجية عن بقية عناصر المعلم، وهي تبدو للناظر كأنها «أسوار قلعة»^(١).

(٢) يبعث تصميم بيت الصلاة نفسه على الاستقراب. فالبلاطات تأخذ اتجاهها منحرفاً بالنسبة إلى الجدارين الشرقي والغربي اللذين يحددان هذه البلاطات. فلو بني بيت الصلاة خلال الفترة المتراوحة بين ٢٤٨ هـ / ٨٦٣ م و ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م، لاختير تصميم مخالف يجعل من البلاطات والمسكبات تأخذ اتجاهاً موازياً للجدارين الخارجيين، وهو ما جعلنا نرجح أن هذه الجدران كانت موجودة قبل اتخاذ المعلم جامعاً لمدينة تونس، وأن المسكبات والبلاطات أضيفت خلال الأعمال الأغلبية بالجامع، وهي المنسوبة للمستعين بالله العباسي والراجحة لسنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م والتي أخذ خلالها الجامع شكله ومساحته الحاليين^(٢).

وهكذا تبدو العناصر الداخلية الموجودة بقاعة الصلاة كأنها محشورة حشراً داخل الجدران الخارجية؛ كما أن انحراف اتجاه القبلة يعتبر انحرافاً هاماً بالنسبة إلى بقية الجوامع الأخرى، وربما يمكن تفسيره بوجود جدار القبلة قبل تأسيس الجامع؟ ومن الأكيد أن الأغلبية عند إعادتهم بناء الجامع لم يحاولوا تغيير اتجاه القبلة بالرغم من علمهم بانحرافه الهام عن الاتجاه الصحيح، إذ أن إدخالهم أي تغيير كان من الممكن أن ينتج عنه تحويرات هامة في طبيعة البناء.

١، ٢ - محمد الباجي بن مامي، جامع الزيتونة، أهم معالم مدينة تونس الأثرية والتاريخية.

إضافة إلى هذا، فقد وصلتنا العديد من الروايات والأساطير - التي لا تتفق مع العقيدة الإسلامية - حول تأسيس الجامع وإقامته في هذا المكان، من بينها خاصة تلك الرواية التي وردت في "المؤنس" لابن أبي دینار والتي تخص الراهب ترشيش الذي كان مقيماً في المكان الذي أقيمت عليه الزيتونة، وهو الذي دلّ المسلمين الفاتحين ليقیموا عليه جامهم بعد أن حماه قبل وصولهم من أيّ تدنيس، هذا إضافة إلى اكتشافات المعهد الوطني للتراث بإشراف الأستاذ حامد العجايبي التي تعود إلى سنة ١٩٧٢، والتي حصلت في القسم الشرقي للجامع، حيث عثر على مقبرة مسيحية ترجع إلى القرن الرابع الميلادي. كما يؤكد عالم الآثار الفرنسي كوكلر (P. Gauckler) أنه شاهد بقايا كنيسة رومانية توجد تحت مكان المئذنة الحالية. وقد توصل إلى ذلك عندما حصل تهديم صومعة الجامع الراجعة للفترة المرادية. وقد تم ذلك خلال سنة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٤ م، وهي ربما أدلة على ارتباط هذا الجامع بأحد البناءات القديمة التي نرجح أنها كانت مبنى دفاعياً، إذ أن الجامع مرتفع وكان مطلقاً على البحر من قسمه الشرقي، فيؤكد أبو عبيد الله البكري في مؤلفه "المسالك والممالك" أن الجالس داخل الجامع كان بإمكانه مشاهدة السفن بالبحر. لهذا كان الجدار الشرقي للجامع أهم النقاط التي يمكن عن طريقها مراقبة حركات أساطيل الأعداء، ويمكن الافتراض أن حساناً بن النعمان نفسه هو الذي بنى برج المراقبة الموجودين حالياً بكل من الزاويتين: الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية. كما يذكر قسم من الجدار الشرقي بجدران الحصون والأربطة بصفة عامة؛ فحجارته السمكية تؤكد هذا الدور الدفاعي، وربما يمكن تفسير استغناء الجامع عن المئذنة حتى نهاية العهد الحفصي بوجود هذين البرجين اللذين كان يتم الأذان انطلاقاً منهما. وهكذا، فإنه يمكن اعتبار الزيتونة معلماً محصناً ومدعماً ببرجي المراقبة، مما يدل على أن الجامع كان يحمي المدينة من هجمات الأعداء، ويضم المصلين والمدافعين على حد سواء^(١).

لذلك من الراجح أن حساناً لم يبن جامعاً، بل استعمل معلماً قديماً، وجعل منه مسجده، مثلما حصل في بعض الجوامع الأخرى كجامع دمشق وجامع قرطبة. وهكذا من الممكن أنه استقل معلماً دفاعياً أو كنيسة، ولم يشيد جامعاً، وأن بن الحبحاب وسّع بيت الصلاة^(٢).

١، ٢ - محمد الباجي بن مامي، جامع الزيتونة، أهم معالم مدينة تونس الأثرية والتاريخية.



حي باب البحر هي قلب العاصمة التونسية



أحد أزقة تونس العتيقة (المنطقة المرية)

تذكر المصادر التاريخية أن لتونس خلال العصور الإسلامية الأولى خمسة أبواب وهي: باب الجزيرة (جنوباً) وباب السقاين (شمالاً) وباب أرطة (غرباً) وباب البحر (شرقاً) وباب قرطاجنة (شمالاً شرقياً) كما تذكر المصادر أن الخليفة **عبد الملك بن مروان** أمر القائد **حسان بن النعمان** بتشييد الجامع ودار الصناعة بتونس.

وكتب الخليفة إلى أخيه عبد العزيز والي مصر ليوجه ألف قبطي بأهله وولده لصنع المراكب، وسفر البربر لجلب الخشب، ثم وقع تشييد ميناء شرقي دار الصناعة وميناء آخر على ساحل البحر (حلق الوادي) ثم حفر قناة لجلب مياه البحر إلى البحيرة. هكذا يتبين أن حي باب البحر عرف منذ الفتح الإسلامي أضخم مشروع عمراني بقي بارزاً إلى أواسط القرن ١٦م، وهو دار الصناعة أي مركزاً لصناعة السفن ويحتاج هذا الإنجاز إلى مساحة شاسعة تطل على البحر، ومخازن للخشب ولحاجيات السفن، كما تستخدم دار الصناعة عدداً هاماً من اليد العاملة المختصة (أقباط).



العاصمة (تونس) وهي تطل بإطلالتها الجريئة على البحر

